يشاءون لهم من رفعة وخير وصلاح

وقد يستدرك القارىء هنا ويسأل : أيكون الميل الى توكيد الذات وشهوة البروز فى مجال القيادة والزعامة عامل خير ووسيلة صلاح فى ميادين العمل الاجتماعى ، ونحن نشهد من آثارها هذا الميل المسرف والتكالب المزرى على أسباب البروز والرفعة فى ميادين الزعامة المختلفة ، وان يكن ذلك — فى كثير الأحيان — على حساب الأمانى العامة واهدار المصالح الكبرى للشعب ؟

ونجيب أن الميل إلى توكيد الذات عن طريق السيادة الاجتماعية كشكل ميل آخر من ميول النفس يضحى أداة فاسدة ووسيلة هادمة إذا خبثت النفوس وأسفّت الغاية ، وعلى أن فى يد الشعب — فى معظم أمره — القدرة على كبح هذا الميل وحصره ضمن حدود الصالح العام ، بما يداول من ثقته بين الزعماء والقادة وبما يشهّر بالقيادة النفعية المتاجرة وبما يوليها من المقت والمحاسبة الشديدة ، مما يقمع فى القيادة عواطف الأثرة وحب الانتهاز والاستغلال حيث تهمّ أن تبرز وتستعلن .

ولا مراء فى أن الانتهاز والاستغلال عن طريق القيادة الاجتماعية يقلان فى شرقنا إجمالاً قلة مطردة مما تحدثه التربية من رفع مستوى التعليم والتنبه الفكرى وتعميق غور العواطف الاجتماعية

وأخيراً أثر هذا الميل فى ميدان الحب ، فنرى أن دافع توكيد الذات هذا يعمل عمله القوى فى طلب التنويع فى الحب وعدم الاكتفاء بحبيب واحد يقصر عليه الهم وينيط به القلب إلى آخر العمر . وذلك أن من الناس من يبلغ حسُّ الاستعلاء وشهوة الغلب ورغبة البروز عندهم مبلغاً يطغى عندهم على عاطفة الحب الصحيح فيغدو لا يهمهم من يحبون بقدر ما يهمهم كم من الخلق وقع فى حبائل حبهم ، فكأنهم بهذا يقيسون قدرتهم على الغلب والفوز فى ميادين الحب بعدد اللواتى يهمُّهن ذكرهم واستحوذت على قلوبهن صورهم

ونقف عند هذا الحد من التفصيل والتمثيل لهذا الميل فى أحواله الطبيعية والشاذة موقنين أن الاستقصاء التام والجلاء الكامل لجميع آثاره إنما هو استقصاء لأعظم حالات النفس أثراً مطبوعاً فى الخلق والسلوك وأشدها دافعاً وحافزاً على العمل ، وليس هذا المجال مجال ذلك

أديب عباسى

من (الكتاب الذهبى) قبل أن يطبع

# لغة الأحكام والمرافعات

## للأستاذ زكى عريبى

— ٤ —

### لغة المرافعة لغة التماس

ويجب ألا يغرب عن الذهن أن المترافع ملتمس ، فلغته يجب أن تكون لغة التماس يحوطها الاحترام الكلى للهيئة التى يترافع أمامها . قد يكون أغزر من سامعيه علماً وأظهر فضلاً ، وقد يكون كلامه لهم تعليما ، ولكن عبارته يجب أن تكون عبارة إكبار وإعظام

والاحترام والاكبار لا يقتضى التذلل ولا الضعة فى توجيه الخطاب . وشد ما أكره عبارة « سيدى البيه » يوجهها بعض الزملاء إلى قاض ليس « بيكا » ولا هو بحاجة إلى رتبة تخلع عليه على سبيل التأدب الزائد وقد يحمل خلعها على أنه زلفى وتقرب

### وفى الوقت عينه لغة جرأة

على أنه إن كانت لغة المرافعة لغة تعظيم وتوقير فهى فى الوقت عينه لغة عزة وجرأة . وقد روى التاريخ مواقف للمحامين رقوا فيها إلى درجة البطولة . انظر إلى ديبين وقد دعاه لويس السادس عشر إلى الدفاع عنه أمام الجمعية التأسيسية فى وقت جمعت فيه هذه الهيئة فى يدها جميع السلطات ، وأصبح مجرد الاشارة إلى الملوكية جريمة . انظر إليه وهو يواجه هيئة ضمنها أمثال روبسبير ودانتون ومارات . انظر إليه وهو يقرع أسماعهم وقلوبهم بهذا الخطاب الخالد

« أيها المواطنون ! سأخاطبكم بلسان الرجل الحر . إنى أبحث بينكم عن قضاة فلا أجد غير متهمين

أتريدون أن تجعلوا من أنفسكم قضاة « للويس » وأنتم خصومه ؟ أتريدون أن تجلسوا للحكم فى قضية لويس ولكم فيها رأى يجوب أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ؟

أيكون لويس الفرنسوى الوحيد الذى لا يحميه قانون ولا يتبع فى محاكمته إجراء واحد صحيح ؟

أيجرد من امتيازاته كملك ومن حقوقه كمواطن ؟

أيخذله القانون حاكماً ومحكوماً ؟

يا له من مصير عجيب لا يتصور ! »

لقد ضربت أعناق كثيرة فى عهد الثورة لكلام أقل خطورة من هذا بما لا يقاس . ولكن لأعمال الجرأة روعة تهاب وتحترم ، فان التاريخ الذى حفظ هذه المرافعة الخالدة بين صحفه الذهبية . هذا التاريخ عينه يحدثنا بأن شعرة من رأس ديسيز لم تمس بسبب هذا الكلام الجرىء وأنه ترافع بعد ذلك أكثر من مرة فى أشد أوقات الثورة حلوكة وسوادا

## الاعتدال فى لغة المرافعات

وليس أزرى بالمرافعات ولا أضيع لبهجتها ولا أفل لسلاحها من سفه لغتها . إن عبارة قاذعة واحدة يرمى بها خصم كريم — أو غير كريم — لتكفى فى تنفير القاضى

وليس بعد النفرة تفويت للغرض الأصيل المقصود بالمرافعات وأقبح من رمى الخصم بما لا يحب جرح الزميل

صحيح أن المرافعة دفع وجذب ، ونادر هو المترافع الذى علك زمام أعصابه فلا تجمح به حدة الدفاع ؛ ولكن المسألة مسألة مران ، وإنك لتدهش وقد عودت نفسك التزام حدود الاعتدال كيف يسمو موقفك ، وتعلو حجتك وعتاز بيانك

## المرافعات فى مصر

بقيت كلمة كان يمكن أن تكون موضوع مقال خاص ، فلسنا نملك الاطالة فيها هنا ، وهى عن المرافعات فى مصر

لقد انقضى على انشاء المحاكم المختلطة نيف وستون عاما ، وأقل منها قليلاً على قيام المحاكم الأهلية ، وقد غلبت على الأولى اللغة الفرنسية ، وكانت العربية لغة الثانية منذ الانشاء وقبله

وقد زهت اللغة فى كلا القضاءين إلى حد يشهد لمصر بالتفوق البعيد

حضرت الأستاذين كاتسفليس وبادوا ( وكلاهما شرق متمصر ) يترافعان فى قضية قناة السويس . وكان إلى جانبى الأستاذ جرانمولان الناظر الأسبق لمدرسة الحقوق ، فهمس فى أذنى والأول مندفع فى بيانه الساحر : « لا تطمع أن تسمع خيرا من هذه الفرنسية من خيرة المترافعين أمام محكمة السين »

وفى المحاكم الأهلية سابقت لغة المرافعات الزمن فسبقته

لقد وجد مداره مقاويل — على حد تعبير رئيس محكمة النقض — قبل أن تخطو اللغة العربية خطواتها الأخيرة الواسعة

وجد (حسين صقر) ، و (اللقانى) ، و (نقولا توما) وغيرهم من بناة المجد فى زمن كانت المحاماة فيه مجرد اجتهاد

وثمة نموذج من هذا المجد التابر نجده إلى اليوم قائماً بيننا فى شخص شيخ الجماعة وإمام الصناعة الأستاذ الأكبر ابراهيم الهلباوى بك

من ذا يستطيع إلى اليوم تحدى بديهته الوثابة ولفته الفكهة اللاذعة وسخره القتال ؟

ومن ذا الذى يستطيع أن ينسى سعد زغلول وأبا شادى من جبابرة ذلك العصر وكلاهما كان إلى الأمس القريب صداحا بأروع الأدب

وجاءت بعد هؤلاء طبقة هى فخر المحاماة بمعناها الصحيح وفخر لغة العصر : أحمد لطفى بلغته السهلة الممتعة وعبد العزيز فهمى بقلمه ولسانه الجبارين يتصرفان فى المعنى وفى المبنى بما يريد ويشتهى . ووهيب دوس صاحب المنطق الجزل والديباجة الرشيقة والبيان المتدفق فى غير متعة ولا تزيد . ومرقس ! مرقس الذى لا يلحق ولا يدانى ، مرقس الجذاب الأخاذ ، المتغلغل بسامعه إلى الأعماق ، السامى به إلى السبع الطباق

كل من هؤلاء يستحق أن يدرس دراسة خاصة ، وأن يقدمه إلى الناس قلم غير هذا القلم ، وأن تقف عليه جهود لا تستطيعها هذه العجالة

وفى دراسة هؤلاء الفحول دراسة لناحية مجيدة من أدبنا القوى يجب ألا تهمل . وحسبك منا هنا الاشارة إلى آثارهم فى مختلف ألوان فنى الكلام القضائى بما لا يحصيه محص

## مرافعات النيابة

ومن الاجرام أن تتغفل فى صدد الكلام على المرافعات فى مصر جهود القائمين بالدعوى العامة

لقد ضربوا فى فنى الكلام القضائى بسهم . ورقوا بالمرافعات الجنائية إلى عليين

من نذكر على سبيل المثال ؟

أثروت أم أبو السعود من المغيبين فى جوار الله ؟ الابراشى أم لبيب عطيه أم عمر طارف من الأحياء النابهين ؟

كلهم يصح أن يحتذى

اسمع ما يقول النائب العام الأسبق فى قضية الوردانى

« إن الوطنية التى يدعى الدفاع عنهـا بهذا السلاح المسموم لبراء من مثل هذا المنكر

إن الوطنية الصحيحة لا تحل فى قلب ملأته مبادىء تستحل اغتيال النفس . إن مثل هذه المبادئ مقوضة لكل اجتماع

وماذا يكون حال أمة إذا كانت حياة أولى الأمر فيها رهينة حكم متهوس يبيت ليله فيضطرب نومه وتكثر هواجسه فيصبح صباحه ويحمل سلاحه يتشاءم فى دار أعدائهم فيسقيهم كأس المنون ؟

ثم إذا سئل فى ذلك تبجح وقال إنما أخدم وطنى لأنى أعتقد أن مثلهم خائنون للبلاد ضارون بها : تبا لتلك المبادئ وسحقا لها ! كيف يقوم لنظام قائمة مع تلك المبادئ الفاسدة ؟ إن مبادئ كل اجتماع ألا ينال إنسان جزاء على عمل مهما كان هـذا الجزاء صغيراً إلا عن يد قضاة اشترطت فيهم ضمانات قوية وبعـد أن يتمكن من الدفاع عن نفسه حتى ينتج الجزاء النتيجة الصالحة التى وضع لها من حماية الاجتماع

فاذا كان هذا هو الشأن فى أقل جزاء يلحق بالنفس أو بالمال فما بالك بجزاء هو ازهاق الروح والحرمان من الحياة ؟

تلك مبادئ لا وجود لمجتمع إلا بها ولا سعادة له بدونها ، فالطمأنينة على المال والنفس هى أساس العمران ومن الدعائم التى ادعم عليها فى كل زمان ومكان ، ولكن الوردانى له مذهب آخر فى الاجتماع ، فهو يضع نفسه موضع الحكم على أعمال الرجال فما ارتضاه منها كان هو النافع ، وما لم يرتضه كان هو الضار . ويريد أيضاً أن يكون القاضى الذى يقدر الجزاء ثم يقضى به من غير معقب ولا راد

كل ذلك والأمر لم يتعد ارجاء صدره ولا يعلم ذلك المسكين الذى سينصب عليه هذا القضاء أنه على قيد شبر من الموت جزاء له على جناية لم يسأل عنها ولم يعلم من أمرها شيئاً

إن مثل هذا الحق لا يمكن أن يكون إلا لله سبحانه وتعالى المطلع على السرائر العليم بالنيات ، ومع ذلك فانه جل شأنه شرع الحساب قبل العقاب ؛ ثم إن هذا الحق لم يتطلع إليه أحد من العالمين حتى الأنبياء أنفسهم ، وقد أجمعت الشرائع على عصمتهم من الزلل والخطأ ، ولكن الوردانى يريد أن يضع نفسه فوق كل الدرجات المتصورة لحاكم وحكم وقتل

إنى لارتعد فرائصى إذا تصورت منظر البلاد وقد نشأ فيها البلاء الأكبر بفشو تلك المبادئ القاضية »

واسمع ما يقوله النائب العام السابق خاتماً به مرافعته الرائعة فى قضية الغلال

« لقد أبنت مبلغ نذالة الجريمة ومدى شرها إذا هى وقعت على كابر جليل المقام

أبنت ذلك بقدر ما فسح لى موقف النائب العمومى وأجازته الأمانة التى فى عنقى

ولو أن المجال حر لقائل لسمعتم كل ما يتطلبه حزمكم وترضاه عدالتكم ، ولكننى كما أسلفت مؤمن بفطنتكم ولى فيها كل الغناء على أن هناك أمراً أجل شأناً وأعظم خطراً لا أستطيع حمل ضميرى على كتمانه ، ولا عقد لسانى عن بيانه . هذا الأمر الخطير هو ما أشرت إليه فى صدر مرافعتى وألمحت به عنـد حديثى عن الباعث الذى دفع المتهم إلى جنايته ، ذلك هو ولع التبطل وغواية الاستعظام ، وما أجلت فى جلسة الاحالة بأنه داء اجتماعى وبيل يهدد الحكومات فى كيانها ويشل النظام من أساسه ، وأنه إن لم يؤخذ بيـد عسراء استفحل ضرره وعز اتقاء شره . نعم استفحل ضرره وعز اتقاء شره

ارحموا لأنفسكم بواسع خبرتكم ونافذ بصيرتكم حال البلاد وقد أصبح كل عظيم فيهـا هدفا لرأى شق تربعت فى نفسه الشريرة هذه الأفكار الخطرة ! تلك حال أستعيذ بالله منها

هى مضيعة للطمأنينة ومقتلة للنبوغ ومفسدة لنفس العاملين ؛ بل هى حفرة يتردى فيهـا إخلاص المخلصين ونشاط المجدين وإيمان الصالحين

أنتم قضاة الحق ولكنكم أيضاً مربو الخلق . وكلمة العـدل التى بها تنطقون يتجاوب صداها فى نفوس ناشئة ونفوس ثائرة ونفوس فزعة خائرة . فاجعلوا حكمكم رسالة عدل وبلاغ عبرة وبشرى سلام

وإذا جنحتم إلى الرحمة فاشملوا بها النشء وقد أوشك أن يلتوى ، والبلاد وقد دب فيها ذاك الداء الوخيم

أنتم أطباء النفس كما أنتم قضاة العدل ، والطبيب البصير لا يتردد ولا يني عند الضرورة الحاكمة ، والقاضى الحازم يهذب بالزجر الحكيم وهو فى زجره من الراحمين

وازنوا بين روعـة الرحمة ، وقد حلت بالبلاد وبالنشء وبين